علبة حليب

صوت بكائه الحار اخترق سمعي فأوجع قلبي وأدماه، قمت أتحسس الطريق نحو المطبخ؛ لعلي أجد ما يسد جوعه، علبة الحليب فارغة، لقد اشترى "أحمد" واحدة بالأمس، بحثت عنها، وجدتها بعد عناء، حاولت قراءة تاريخ الصلاحية لكنه غير واضح، لن أعطيه منها، لقد تعلمت الدرس جيدًا..!

دقّت الساعة معلنة منتصف الليل، لكنني أمام صرخاته المتلاحقة ارتديت ملابسي، تسللت حتى لا يشعر بي "أحمد" ويمنعني من الخروج، خرجت التمس متجرًا في هذا الوقت المتأخر، حتمًا سأجد أحدهم لا يزال ساهرًا في هذا الجو الصيفي الكئيب.

المتاجر الرابضة تحت البيت قد أوصدت أبوابها، غير أني عزمت ألا أعود فارغة اليدين، عليَّ أن أُشبع جوعه، لا أتحمل سماع صراخه، رزقني الله به بعد صبر سنين، أصبحت بعدها أمّا، فرحت وزوجي كثيرًا، وتخلصنا أخيرًا من (زن) والدته التي تحشر أنفها في كل صغيرة وكبيرة.

شكوت يومًا إلى أمي فقالت:

_اصبري يا ابنتي، ليس لكِ دواء إلا الصبر.

لمحت خيوطًا من النور تُنسج فوق أحد المحال، تهلل وجهي، رحت استحث الخطى نحوها، أمام باب المحل، شردت للحظة:

_ لماذا جئت إلى هنا؟

بادرني البائع قائلًا:

_ أي خدمة يا مدام؟

همس إليه آخر بجواره:

_ إنها المرأة التي تأتي كل ليلة.

أشعر برأسي يدور، أحاول تذكر ما جئت لأجله في هذه الساعة، نعم نعم، تذكرت، جئت لشراء الحليب، يجب أن أقرأ تاريخ الصلاحية جيدًا، أمسكت بواحدة، فحصتها جيدًا.

_ يا الله، لقد خرجت دون نقود..!

أحسست بيد تربت على كتفي، جاءني صوته كطوق نجاة:

_ كم مرة سأفزع لفقدكِ؟!

التفتُّ خلفي، ألقيتُ نفسي بين ذراعيه.

_ الحمد لله، جئت في وقتك يا "أحمد"، ليس معي نقودًا، ولا بد من شراء علبة حليب، "مازن" يتضور جوعًا، لا بد أن صرخاته قد أيقظتك..!

أمسك بيدي، واتجهنا ناحية البيت، بعد أن قال بصوت لم يخلُ من الدفء:

_ مرّ عام على رحيله، الموتى لا يجوعون يا حبيبتي، لا ذنب لكِ فيما حدث، لا ذنب لكِ.